سباق الظلال(1)

إيمان بصير*

أثارت السيّارة التي توقفت عجّة في المكان. توقف الأولاد عن اللعب محتارين فيمن سينزل من السيارة. نزل رجل طويل القامة، يرتدي لباساً أنيقاً، يمسك بيده حقيبة سوداء، سار تجاه أحد البيوت، دون أن يفلت من العيون التي تراقبه.

قال أحد الأولاد: هذا هو الدكتور.....

أسرع الأدهم ومشى إلى جانبه، وبعد أن تفحّصه جيداً ابتسم له، وقال: هل صحيح أن اسمك الدكتور؟ أنا أسمي الأدهم. تشرّفنا. ومدّ يده، فمد الطبيب يده إلى الحقيبة، ونقلها إلى اليد الأخرى.

تراجعت خطوات الأدهم إلى الوراء، وتمنى ألا يكون أصدقاؤه قد رأوا ما حدث، إلا أن ضحكاتهم زلزلت الأرض من تحته، فعرف أنهم كانوا يتابعون كل شيء. فرّ هارباً من وجوههم. راقبهم عن بعد فوجدهم عادوا إلى اللعب. ارتاح باله لأنهم لم يروا دموعه.

راودته فكرة جهنمية أيدها على الفور: أن يفتح رأس «الدكتور» بحجر، حال خروجه من الدار. أعد الخطّة جيداً: يصعد إلى سطح الدار والحجر ينتظر عند قدميه. حجر مدبب من ثلاث زوايا. لن يخطئ الهدف حال أن يطل «الدكتور» برأسه من الباب.

وقف على السطح، صاح على الأولاد الذين يلعبون في الشارع: راقبوا من عندكم ما سيحدث.

دبّ خوف مفاجئ في قلبه، عندما سمع أباه يقول: تفضّل دكتور.

لاحظ الأولاد الذين انتشروا حول الدار، وتجمّع بعضهم عند النوافذ، وسرعان ما سمع أمّه تصيح: انصرفوا يا أولاد. تأكّد له أن الطبيب في دارهم. لعلّ جدته هي المريضة.

بدا باب الدار بعيداً وهو يركض نحوه، ناسياً الخطة التي دبّرها للانتقام من الدكتور المتعجرف. تمنّى أن يسمع كلمة واحدة، ليعرف ماذا يجري في الداخل. لم يسمع إلاّ صرخة تبعتها سلسلة صرخات شلّت ركبتيه. ذهل من عدد النسوة اللواتي ظهرن فجأة أمام الدار، يصحن، ويضربن صدورهن ويصفعن وجوههن، كأنهن كنّ ينتظرن إشارة لأداء هذا الدور.

كان يظنّ أنّهن سيذهبن ما أن يتممن التمثيلية المرعبة التي يؤدينها، إلاّ أنّهن لم يتزحزحن من أماكنهن. عرفهن واحدة واحدة، حفظ وجوههن، ولن يسامحهن على ما فعلنه به ما بقي حيّا.

هرعت نسوة أخريات، كدن يدسنه. بصعوبة خلّص جسده الصغير من بينهن، وأخذ يراقب مندهشاً ما يجري. عبر إلى مسمعه «ماتت مخزية من الفضيحة، نقطة دم على المخ».

حدسه يقول إنّها جدّته. لا يمكن أن تكون هي! كانت تحكي له حكايات «حديدون والغولة»، وتجلب له «حامض حلو» من الدكان. ماذا قال لها هذا الصباح قبل أن يخرج؟ هل طرح عليها تحية الصباح أم نسي كعادته أغلب الأيام؟ تذكّر لحظة خرج من الدار. كانت تتناول فطورها. ماذا حصل بعد؟

فاجأه الصوت: ابتعد عن البئر يا ولد.

قال رجل آخر: هذه البئر تخطف الصغار. ابتعد يا ولد.

لم يثر هذا الكلام خوفا لديه. بل أثار فضولاً غريباً طارئاً. اتخذ قراراً سريعاً بفتح غطاء البئر، وغيّر اتجاه تفكيره تغييراً كاملاً.

أمسك بالمقبض الحديدي، وقبل أن يرفعه، اللحظة التي تسبق هذه تحديداً، اختطفته يدان غليظتان وهربتا به. لم يفق إلا على صوت أمه وهي تؤنب «ريمون أبو فرخة» على ما فعله. رجته أن يشرب الماء الطارد للخوف من «طاسة الرجفة»، توسّلت إليه: «مشان الله يّما»، جرعة واحدة.

وقبل أن يقفز من حضنها، دلقت بعض الماء في حلقه فتشردق به، واحمر وجهه، ودمعت عيناه. هرع إلى الخارج وهو يسعل ويرتجف، كمن أصابه مس شيطاني، وهي تتمتم وراءه «اسم الله عليك يّما». رجع إليها، دسّ رأسه في حضنها، وانهار باكياً. لا يريد أن يعرف شيئاً أو يتأكد من أي شيء. الحياة مخيفة دون أمه. هذه هي الحقيقة الواضحة أمامه الآن. عندها عرفت أنه بال في بنطاله. لم يقل لها ذلك صراحة، لكنّها فهمت من حركة قام بها، واكتفت بأن أخذته إلى الغرفة الأخرى وبدّلت له ملابسه دون أن تجعل أحداً يلاحظ ذلك. ظنّ الأدهم أن القصة انتهت عند هذا الحد. لم يعرف كيف التقط الأولاد الخبر، وصاروا يلقبونه فيما بعد «أبو رطّة»، ويرددون خلال اللعب: « أدهم صغير . . نطّ في البير . . طلعوا عليه كل الدبابير».

كان يعود إلى البيت مطأطئ الرأس، مكسور الخاطر، وهو يمسح دموعه، ومخاطه يتدلى من منخاريه مثل الدودة الشريطية. أصبح يحبّ اللعب مع فارس، الذي يكبره بعامين؛ ولد مهذب لا يجاري الأولاد الآخرين.

عندما خطر في بال الأدهم أنه كان هنا منذ قليل، وأن أحداً اختطفه وهرب به، انتابه رعب هائل. على أية حال، لم تختطفه البئر كما حذروه، ولم تنزل به إلى العتمة، حيث الأفاعي والسحالي.

نظر إلى فارس، دون أن يسمع شيئاً مما قاله، ثم أصغى باهتمام لما أردف به: تخيّل يا أدهم، لو رموا جدتك في هذه البئر فإنّها لن تخاف ولن تتوجّع.

ردّ الأدهم في استخفاف: من يجرؤ أن يرميها؟ سأرميه قبلها.

ضحك فارس، وأردف الأدهم بصوت عال: تركتها في الصباح في المطبخ، وعند العصر أتركها في بئر مع السحالي، هل أنت مجنون؟

قال فارس واثقاً من نفسه: أنظر. كل هؤلاء الناس الذين يبكونها، هم الذين سوف يرمونها. تراهن؟

أجاب الأدهم، محتدّاً: أراهن، سوف أمنعهم، ثمّ إنّ

أمي وأبي سوف يمنعانهم. هل تعرف ماذا سأفعل؟ سوف أطرد كل الناس من دارنا.

– حتى إذا طردت الناس من داركم، هل تظنّ أنّ جدتك ستعود إلى الحياة؟

– لن أدعهم يأخذونها، إنها جدّتي. أنت لا تفهم.

قال فارس وقد احتد الجدال بينهما، وسمع صوتهما بعض المعزّين: سوف يأخذونها ويرمونها في الحفرة أمام عينيك.

– قبلت الرهان.

– وسوف يهيلون التراب فوقها.

سرعان ما فقد الأدهم أعصابه وانهمرت الدموع تملأ وجهه. ركض نحو البيت وهو يهدد ويتوعّد: سوف نمنعهم، أنا وأبي. سوف نمنعهم، وسترى.

عند عصر ذاك النهار البارد، حشر جسده بين الرجال الذين سرقوا جدّته، وكادوا يذهبون بها، لولا أنّه فتت قلوبهم لشدّة ما صاح، لكنهم لم يستطيعوا تأخير مراسم الدفن، فذهبوا دون أن يعبأوا به. سار بين المشيّعين. ركض أمامهم. تمنى لو كان رجلاً مثلهم. لو أنّ له يدين كبيرتين، وساقين طويلتين. مع ذلك، سيمنعهم من إلقائها في البئر.

وعند لحظة ما، وبعد أن أنهى الكاهن صلاته، تدحرجت حبات تراب من تحت قدميه وهو يتقدمهم، وهوت داخل الحفرة.

كانت جدته على وشك أن تمد يدها إلى جعبتها، وتناوله حبات «حامض حلو». همست له بشيء ما، فعرف أن عليه إبعاد الرجال من حول الحفرة. لم يعرف لماذا يكنّون لها كلّ هذا الكره!

دفع بعض الأولاد والرجال إلى الخلف. دفع غيرهم. لم يتزحزح أحد، ظلّوا هناك صامتين دون حراك. استنجد بأبيه فأصابته العدوى وأصبح مثلهم. تململ التراب تحت أقدامهم مرة أخرى. صرخ ليبتعدوا، فحملوه وأبعدوه، ولم ير كيف تلاشت جدته تحت سخط الأتربة والحجارة.

منذ أشهر، كان بعض الجيران قد جاءوا بها إلى بيت ابنها لتقيم عنده، بعد أن وجدوها فاقدة الوعي أمام المرحاض الخارجي، وفي أعلى جبينها جرح نزف والتأم. وبعد منتصف ليلة سبقت هذه، سمعوها تئن أنيناً موجعاً. وبين الفنية والأخرى كانت تنعى حالها وهي تصبّ اللعنات على اليوم الذي ولدت فيه ابنها الوحيد. لم تجهد نفسها في رزم حاجاتها، كانت تحتفظ بصرة تنام إلى جانبها، وفيها كل ما يلزمها، دون أن تضطر للنهوض من السرير لتتناول أيّ غرض، فيما احتفظت على مدى سنوات طوال بمشط «كفّ»، وشال خمري اللّون عليه بعض المطرّزات وله أهداب من الحرير كانت ترتديه في المناسبات الرسمية وأيام الآحاد، وشكّة مطرزة على دايرها ليرات من الفضّة الخالصة تتخلّلها بضع ليرات من الذهب، كانت تتباهى بها في الأعراس وفي عيد الفصح المجيد بعد أن تضع فوقها شالها الخمري، كما احتفظت ببضعة مناديل لتعقص بها شعرها، ومسبحة للصلاة، وأيقونة للسيدة العذراء، ومرود كحلة كانت تستخدمه في صباها عندما كان يحلو لها أن تطرب لكلمات الإطراء من أبي إبراهيم.

تفقدت كل ذلك قبل أن تعقد الصرة وتشيح بوجهها عن الدار، وهي تعلم أنها تغادرها إلى الأبد. ودّعت الحيطان، وأطباق القش والغربال وصور القديسين، كما ودّعت الباب الخشبي العتيق، والدرجتين أمام العتبة، وحجار الموقد، وبعض أعواد الحطب، التي ستظلّ تخشى اشتعالاً لن يتم. دسّت المفتاح في عب ثوبها

المهترئ. تأكدت أنّه هناك. لآخر مرّة سمعت صرير الباب الذي ذكرها بأنها نسيت أن تمسح المزلاج بقليل من زيت الزيتون.

لو أنّها، فرضاً لو أنّها، ترجع إلى الدار، فأول شيء ستفعله هو مسح المزلاج بقليل من زيت الزيتون، ثمّ إعادة الحجارة التي سقطت عن السنسلة، بفعل الكلاب الضالة. لعنت الكلاب التي فرضت عليها هذه المهمة الشاقة، طوال سنوات الترمل. كان عليها أن تحافظ على الأرض، بإبراز حدودها للعيان، خاصة أن جارها «أبو لطفي» يشيع منذ وفاة أبي إبرهيم أن له متراً من الأرض وراء السنسلة. وهو بالتالي سينتهز فرصة تساقط الحجارة، لردم السنسلة وإعادة بنائها على مسافة متر أو أكثر داخل حدود أرضها. لمعت في رأسها طرقتا المزلاج المألوفتان لديها، تحديداً الطرقة الثانية، التي ككلّ مرّة من خمسين عاماً أحدثت صدى كئيباً، يشبه طنين الأذن المباغت. ودعت حميمية الصوت والأثر المتبقي لقدح البابونج الصباحي الأخير. مددت الشاجوم عند المدخل الخارجي للدار، لحمايتها من العابثين، وأدارت ظهرها، وفي داخلها صوت يهمس: «خاطرك يا دار».

عزّ عليها فراق أبي إبراهيم، كأنّه لم يفارقها من تسعة وعشرين عاماً. إنّها واثقة أنّ الدار التي جمعتهما معاً، فيها ما يعادل وجوده حياً، ربما كانت أنفاسه طلّته عليها اختلاجات صدره في ليلة عاصفة، أو رغبته في الارتواء من ماء الزير الباردة، مذاق الارتواء، هنّأوه في قيلولة نهار حارّ.

لاح لها وجهه حيثما التفتت، كما لو أن روحه تحوم حولها. طعم الحسرة عالق في حلقها. حتى عهد قريب ظلّت تقيم المناحات ومراسم الحداد، وتتحدث إليه، وهي تلومه أشد اللوم، لأنّه تركها وحيدة، ولم يأخذها معه. للحظات مريرة عاشت أدقّ تفاصيل الفجيعة، كأنهم قالوا لها الآن: إنّه كان يتحدث ولم يشك من شيء، وفجأة حنى رأسه وسكت. ظنّوه نام للوهلة الأولى، حاولوا أن يوقظوه، ظلّوا يوقظونه دون فائدة، دفنوه وهو نائم، مات ميتة القديسين، لم يتوجّع أو يئن. بدت ملامح وجهه واضحة جلية أمامها، بعد أن كادت تنساها، وجه يأتي إليها من الغيم البعيد، يلفحها بذكريات الأيام الخوالي، شعرت كما لو أنّها الآن فقط تودعه أو تتعرف إليه. هل يتفهمها إذا شرحت له أنها فقدت مروّتها، وأن صحتها هزلت وتردّت، فاضطرت إلى ترك الدار، والعيش بين أناس ينتشلونها إذا سقطت والتوت ساقها تحتها، وأنه لم يكن من مفرّ من دار ابنهما إبراهيم، فعلى الرغم من غضبها عليه ستحتمل مهانة العيش في داره، إلى أن يأخذ الله وداعته.

قبل أربعة صفوف من إنهاء إبراهيم دراسته الثانوية، كان قد رسب في كل المساقات المقرّرة للصف السابع، باستثناء مادة الرياضة، وكان قد حفظ أسماء قطع السيارات، وغالباً ما كان يبدي آراءه حول أمور السياقة والتصليح، وقطع الغيار، ثم هجر المدرسة، وأصبح عاملاً في أحد الكراجات، وأظهر فيما بعد عجرفة في التعامل مع الآخرين، كما مع أمه، فبدا معتدّاً بنفسه حد الهوس المرضي أحياناً، وأصبح يختال في مشيته، ولاحت ملامحه على جانب من الجمال الأقرب إلى الأنوثة، فتردّدت شائعة مفادها أنّ هذا الولد أخنث، الأمر الذي جعل بعض الصبية ينصبون له كميناً ذات ظهيرة حارة، ويطيحون به أرضاً، محاولين تعريته في استماتة، كي يكشفوا عن عورته الشاذة، التي لم يعرفوا لها شكلا أو كيف يتدبّر بها. صاح أحد الأولاد بأعلى صوته أنّ له عورة البنات، ونادوه وتكلّموا معه على

أساس أنّه بنت، وضحكوا وسخروا منه، ولم يتركوه. احتدّ العراك بينهم وبينه، ودافع بشراسة عن سرواله، فتهشمّت يداه وبطنه، ونزّ الدّم من جرح في عنقه وآخر في وجهه. واشتعل الألم يكوي مقلتيه. تمزّق السروال بين الأصابع المئة، وأطلّت عورته الذليلة مثل عوراتهم، فتباعدوا وتبددوا من حوله.

ومنذ عهد ليس ببعيد: عندما جاء يجر أذياله بعد الفضيحة المشينة، أغلقت أمه الباب في وجهه، وألقت بأغراضه في الخارج، وطردته، وحرمت عليه دخول الدار، ما دامت حيّة ترزق، وصرخت عليه على مسمع من الجيران الذين أنصتوا عند الأبواب والشبابيك، وهي تنشج وترتجف وتقول إنّه حطّ رأسها في الوحل، وإنّها لم تعد تجرؤ على أن ترفع عينيها بأيّ من أهل القرية، وإن أباه كان زينة الرجال، وحاولت أن تقنعه أن أباه غاضب عليه في قبره، لأنه خان التربية الحسنة والدلال، وخذلهما أشد خذلان.

بعد أن كبر الأدهم، وتعلّم المشي، وصار يطوف الحارات، لعب دوراً في التقريب بين الجدّة وأبيه. أصبح يتردّد على دار جدته، خاصة أيام العطل المدرسية، وكانت تستقبله بالفتور بداية، متفادية الحقيقة التي تغرس مخالبها في صدرها، ثم توطدت العلاقة بينهما، وأصبحت تنظر إليه كملاك وديع لا ذنب له، فبدأ منذ ذلك الوقت عهد صداقة حميمة بينهما. في أي وقت يجيء كان يطلب منها الفطور، وقد حاولت أن تعلمه التوفيق بين أسماء الوجبات وأوقاتها، لكن محاولاتها جميعها كانت تبوء بالفشل، إذا غاب عنها يومين متتاليين، لأنّه يعود إلى خلطه الرهيب.

كان لا يأبه لذلك الترتيب، ولا يعنيه بشيء، طالما أن جدته تأخذه من يده، وتغسل له يديه المتسختين، وتجلسه إلى السفرة، واضعة أمامه قطع الجبن الأبيض، وبعض حبات الرصيص والزيت والزعتر. وتغلي له الشاي على بابور الكاز وتنقعه بالنعناع البيتي قبل أن تصبَّ له كأساً، وتذيب فيها مكعَّبين من السكّر، ثمّ تلفّها بمنديلها الأبيض الناعم وتناوله إياها.

أحياناً كانت تعرض عليه بعض الإغراءات المشهيّة كي تجعله يأكل، إذا قال إنه ليس جائعاً، كأن تحمّص له نصف رغيف، بعد أن تمسّده بالزيت وترشّ فوقه الزعتر أو تصنع له أقراص العجّة أو المشاط، وتكون قد نقعت له قطع الجبن المملّح بقليل من الماء من اليوم السابق. فقد كان أحبّ ما على قلب جدّته أن يأكل، وهي لا تطيق أن ترى فكّيه متوقفين عن الحركة. وفي بعض الأحيان كانت تقطع عليه اللعب، وتعطيه كمشة «قطّين» أو تدسّ في جيبه حبات قضامة. وتفاجئه أحياناً بصرة صغيرة من الفستق، كانت حصتها من عرس اليوم الفائت، وقد تسلّت أصابعها بتقشيرها حبة حبة، وصرت عليها المنديل، فيما النسوة يرحن ويجئن معجوقات، وهي لا يشغل بالها غير الأدهم ومعدته.

للمرّة العشرين أو أكثر، يطلب منها أن تقصّ عليه حكاية الغولة التي تسببت في قطع سلالة حامولة السفراوي من القرية. هذه القصّة التي لا يملّ سماعها، ولا تملّ هي سردها: يقال إنّ غولة هاجمت بيتاً في القرية في غابر الأزمان، وعندما وجدت الباب موصداً، أخذت تحفر وتحفر من تحت الباب، حتى أطلّت برأسها وقالت للمرأة: «أطعميني، أنا جائعة»، قدّمت لها المرأة الطعام في باطية كبيرة، وكان الطعام مكوناً من القطّين والخبز. وكانت كلما فرغت من الطعام طلبت المزيد قائلة: «كيف أنام، وكيف أنام وبطني خالي من الطعام». لكنّ المرأة أدركت أنّ الغولة التي التهمت زاد الأطفال والعائلة لن

تشبع، وأدركت أن ما توقعته كان صحيحاً، حين طلبت منها الغولة أن تلقي لها بأحد أولادها.
قرّرت المرأة أن تتخلّص من الغولة بحيلة ما، وهي تراها تحفر تحت الباب حتى تدخل بطنها الكبير. ارتعب الأبناء الصغار واختبأوا في الخابية، لكن الأمّ كانت قد أعدت قدراً من الزيت المغلي، وجاءت به نحو الغولة التي شارفت على دخول البيت، وصبّته فوق رأسها. رفعت الغولة رأسها، وقالت للمرأة: «أعيدي ما فعلته مرة أخرى»، فقالت المرأة: «لم تعلمني أمي»، لأنّه إذا أعادت المرأة صبّ الزيت على رأس الغولة مرة ثانية، فإنّ الغولة ستتغلّب على محنتها وتعود إلى الحياة. لكن المرأة نجحت في التخلّص من الغولة وإنقاذ أطفالها. وقبل أن تلفظ الغولة نفسها الأخير، قيل إنها دعت على حامولة تلك المرأة بقطع النسل.
وشهدت الجدّة أنّ هذا ما حصل فعلاً في تاريخ القرية، وأنّ الحامولة التي انتسبت إليها تلك المرأة، ظلّت تنجب الإناث على مدى عدة أجيال، ولم تلد امرأة واحدة ذكراً، حتى تبددت الحامولة، وقضي على ذريتها بكاملها.
أوّل مرّة قصت عليه الجدة هذه الحكاية، كانت مساء الليلة اليتيمة التي نام فيها في دارها، ليلتها رأى الغولة تدقّ زجاج الشباك، فارتعب والتصق بجدته التي حضنته وهمست له: إنّ هذا هو البوم لا الغولة.
وحدّثته في الصباح أن البوم صديق وفيٌّ للمرضى. وقالت له، أيضاً، إنّ لدى البوم إحساساً خارقاً، فهو يتنبأ بما يجري في عتمة الغرف وعتمة السرائر، وعندما ينعق، يكون قد عبر عن مواساته، لأن الليل قاسٍ وخانق على من يقضونه وحيدين.
كان قد ترّجى جدّته مراراً خاصة بعد تلك الليلة أن تسكن في بيتهم، وأقسم لها أنه خصّص لها مكاناً في غرفته، فأصبحا يقضيان النهار في لعب الورق وكانت جدّته ماهرة في لعب «الباصرة»، وتكسب اللعبة منه، إلا أن نظرها خانها آخر الأمر، وصارت تخلط بين الأوراق فازدادت حماسته للعب، وأضاف إليه تسلية أخرى عندما صارت تلجأ إليه بالأسئلة: هل هذه خمس أم تسع؟ فكان يخدعها في غالب الأحيان حتى أصبح الفوز حليفه الدائم. وصار «يلوش» كل الأوراق التي ترميها الجدّة وكانت تعلم بمكر هذا الصغير، وتتقصّد له الفوز حتى تراه مبتهجاً، وأصبحا يلهوان مثل صديقين، فيصيب جدته ما يصيبه من فرح صبياني.
ونادراً ما ناطق لسان الجدّة لسان الكنّة، إذ لم تبادر أيّ منهما أية مبادرة طيبة لفتح حديث ودي، مهما كان موضوعه، من شأنه تلطيف الأجواء. تكتفي كل منهما بطرح التحية إذا التقت الأخرى وجهاً لوجه عند زاوية المطبخ، التي تفاجئ القادم والخارج لأنّ عليه الانعطاف عندها بزاوية قائمة.
وقد اعتادت الجدة أن تطلب من أم الأدهم، أن تتك لها المنديل قبل أن تعقص به شعرها ثانية، فتقوم هي بأخذه من يدها إلى الخارج بحركة ميكانيكية، دون أن يبدر عنها أيّ تعبير محدّد، ولم يعرف ما إذا كانت تفعل ذلك مغتاظة أم مسرورة، وعلى الأرجح أنها كانت غير مغتاظة وغير مسرورة. وهذا التعبير الأنسب لحالة الكنّة التي تبدو للتو أنها محايدة، وفي اللحظة ذاتها تبدو أقل من محايدة فكانت تراوح بين اللاحياد واللاموقف.
كانت الجدّة تقضي نهارها جالسة في «مطرح» واحد قرب عتبة الباب، وقد تكون العتبة ذاتها، بعد أن تفرشها بجودل عتيق، فهناك تتمكن من رؤية الشعر الذي علق بثوبها وتتسلى بإزالته ساعتين أو أكثر. ومنذ الصباح

تزحف خطواتها نحو «القعير»، تتفقّد شتلة الميرمية التي زرعتها في حوض صغير عندما جاءت، وتفاجئها زنابق النرجس التي شقّت أرض المصطبة وخرجت منها على شكل باقة، كأنّ أبا إبراهيم، الغائر في بواطن الأرض مثل الجذر، أهداها إيّاها، وإلا فلماذا تركت المصطبة بأكملها، وشقّت المساحة الدقيقة عند العتبة أمامها مباشرة.

هناك تمعنت عيناها مراراً في اللا شيء تمعنت وتفحصت وصفنت، أحياناً راقبت سرب نمل، ومرّة عادت نملة لأنها تمرّدت عن مسار السرب، وأعجبها أن تتسلّق شبشبتها. كانت نملة فضولية ملحاحة، عضّت الجدة في قدمها وهربت. بحثت عنها الجدة وهي تلعنها وتتوعدها، لكن النملة نفذت بجلدها، وعادت والتحقت بالسرب الذي أوشك أن يفوتها.

لا يكسر رتابة النهار وضجره سوى المشاكسات التي يثيرها الأدهم إذا عاد من المدرسة بفوضاه المحببة، دابّاً العجقة في البيت.

كان قد عكف عن اللعب مع جدّته والتحرش بها، لأنها لم تعد تسمع كالسابق، في الوقت الذي ازدادت فيه أسئلتها، فكلما نطق بكلمة، تقاطعه وتنهال عليه بمجموعة أسئلة بصوت عال مستخدمة يديها في لفت انتباهه كأنه وغيره لا يرغبون في الإنصات إليها: لماذا لم تضربه مثل ما ضربك؟ من هو أبوه فاسد؟

يجيبها الأدهم وقد سقط على الأرض من شدّة ضحكه: فارس يا جدتي . . . . فارس.

وتردّ عليه بكبرياء، بصوتها المرتجف: فارس وإلا فاسد كلّه واحد، لماذا لم تضربه؟

فيصيح في أذنها، وهو يوشك على الخروج: فارس صاحبي يا جدّتي.

في السابق، كان قد أحضر معه فارس وبعض أولاد الحارة ليلهوا في محيط دارها. وبسبب إلحاحهم عليها، جعلتهم الجدّة مرّة يساعدونها في تحضير فتات الخبز المبلول للعصافير، ويملأون الطاسات الصدئة بالماء. لكن أحد الأولاد استغفلها وملأ إحدى الطاسات بولاً. وقبل أن يذهبوا وشوش الأدهم جدّته بأنه أوصى أباه أن يحضر علفاً من المدينة لعصافيرها، فقالت الجدّة وهي تلهث وعيناها تراقبان سرباً من الحمام حام وابتعد:

– إنها عصافير الله وليست عصافيري.

فسألها فارس آنذاك بنبرته الهادئة: لماذا تهتمين بها وأنت لا تذبحين عصفوراً واحداً لتأكليه؟

ثم تلاه الأدهم مباشرة، وسألها بصوته الذي بدا أكثر جرأة: ألا تخشين أن تأخذ منك الطعام والماء وتبني أعشاشها بعيداً عن هنا؟

أجابت الجدة، وقد بدا انحناء ظهرها واضحاً، وهي جالسة على العتبة: هذه العصافير لا تأكل ولا تبيت في مكان، إذا لم تشعر أنها في أمان، إنها تعرفني كما أعرفها، كان أجدادها يعرفون جدك رحمه الله.

وأردفت بصوتها الواهن كمن يقول حكمة. كان جدّك يقول: «إننا نحتاج لشرب الماء عند الخوف لأنه يلامس الروح ويطمئنها». تناقش الصديقان وهما عائدان فيما قالته الجدة، وأضاف الأدهم وهو يتسلّى بتقشير المخاط الجاف من أحد منخاريه: «قصدت جدتي أن تقول: إنّ الروح مكانها هنا»، مشيراً إلى مقدمة عنقه. قال فارس وهو يفرك يديه من برودة شهر شباط، ويأخذ في الركض: هذه يسمونها تفاحة آدم، وليس الروح.

وقبيل الغروب، عاد الأدهم ومعه بعض الأولاد. حاموا حول بيت جدته، وبعد أن تأكّدوا من أنّها في الداخل بذروا حبوب العلف المنوّم أمام الدار وهربوا مثل

لصوص. وفي الصباح، مرّ الأدهم وهو في طريقه إلى المدرسة فرأى منظراً تقشعر له الأبدان، ولم تلاحظ الجدّة وجوده وهي معجوقة في محاولاتها اليائسة، لإبعاد القطط التي التمت من كل صوب، لالتقاط العصافير النائمة عند العتبة والدرجتين.

***

في إحدى الليالي الممطرة، وفيما كانت الأشجار في الخارج تصدر دوياً كدوي الأشباح، رأى الأدهم «ريمون أبو فرخة» يتنكر في هيئة أستاذ الحساب، وقد جاء لمعاقبته على رسوبه في امتحان نهاية السنة، أشار له أن يتبعه إلى سطح بناية المدرسة، فاصطكت ركبتاه ببعضهما، وشلّت حركته ولم يذكر إن كان قد مشى ليصل إلى هناك. بحلق في صلعة «ريمون أبو فرخة» وكرشه المنفوخ مثل كرة كبيرة. دقّق في شاربيه، كما لم يدقق يوماً، كانا سوداوين كثّين، يمتدان من الطرفين بحركة مبرومة مثل ذنب فأر. تمعن جيداً في بياض عينيه، تحت زجاج نظارته السميك، فرأى البياض يغطي ثلثي وجهه، وفي منتصفه دائرتان رماديتان واسعتان.

فوجئ عندما هاجمه، وحاول أن يلقيه من أعلى سطح المدرسة. في هذه اللحظة بالضبط بال الأدهم في بنطاله، رغم أنه تجنّب شرب الشاي عند العشاء كما نصحته أمه. هَيَّء له أن صرخة مدوّية شقّت صدره، إلاّ أنّه عندما أفاق وجد فمه مفتوحاً، وحلقه ولسانه جافين متيبسين. شعر بحرارة أنفاسه، تمنى لو أن جدّته لم تتركه، لو أنها ما زالت ترقد في الفرشة إلى جانبه. تمنى لو أنّ له أخاً يشاركه الغرفة، لينام ملتصقاً به، أو ليطلب منه إحضار كأس ماء.

في الصباح سيطلب من أمه أن تنجب له أخاً، وسيعطيه سريره، ويلعب معه بدل أولاد الحارة الذين لا يطيقهم، ولن يتشاجر معه كما يفعل الأخوة. ارتعش لبرودة الفراش والبيجاما، تسلّلت دمعة إلى حافة فمه، فكان مذاقها حاراً مالحاً يزيد من عطشه. منع نفسه من عمل أية حركة صغيرة، فـ«ريمون أبو فرخة» رابض عند النافذة، جاهز لمهاجمته واختطافه إذا لاحت له فرصة ما.

رفع رأسه من تحت اللحاف مختنقاً برائحة بوله. اليوم سيلقى عقاباً أشد من أمه، إنها ليست ككلّ المرات. فكمية البول كثيرة هذه المرة لدرجة أنها بلّلت الوسادة، ووصلت عنقه وكتفيه، فعلى الأغلب أنه عملها مرتين أو أكثر.

سيرجو أمه أن تبقي الموضوع سراً بينهما، وسيشدّد عليها ألا تخبر والده الذي سيضربه وينفخ في وجهه، ويحبسه في غرفة الفئران. سيقول الحقيقة لأمه، فهي تفهمه ولن ترفع صوتها في وجهه، سيقول لها: إن «ريمون أبو فرخة»، يزوره ليلاً مثلما لا يكف عن ملاحقته خلال النهار، وقد جاءه الليلة الفائتة وجرّه إلى المدرسة وأراد أن يلقيه من أعلى السطح.

في الصباح سيسألها كيف يدخل «ريمون أبو فرخة» إلى الدار، وكيف لا يرونه، وسيطلب منها أن تغلق النوافذ بإحكام، وألا تفتح الباب لأحد، ما لم تتأكد من هويته. سيهمس في أذنها بأن عليها أن تحتاط من البائعات اللواتي يترددن على دارهم، وسيشكّكها في بائعة الأقمشة التي لا تكشف عن وجهها ويديها، فربما كانت رجلاً لا امرأة. ولماذا لا تكون خدعة من خدع «ريمون أبو فرخة»؟ وسيشي لها أن هذا الأخير ساحر، ولديه طربوش أحمر إذا ما لبسه فإن أحداً لا يقدر أن يراه.

جفل لمجرّد فكرة أن يلقط الأولاد خبراً عن فضيحة هذه

الليلة. ولم يعرف ما هي الطريقة التي يلقط فيها هؤلاء الأشرار أخباره المخزية، وكيف ينتشر الخبر كلمح البرق، لوعرفوا لرجموه بالحجارة هذه المرة.

تلصّصت عيناه من فوق اللحاف، فرأى رجلاً على هيئة «ريمون أبو فرخة» ما زال مقرفصاً أسفل الشباك. لمعت في عينيه عينان واسعتان تتقدان شراراً مثل جمرتين. كاد يصيح منادياً جدته، لو أنه يسمع همس مناجاتها أو تثاؤبها، لعرف أنه ليس وحيداً. راودته فكرة جريئة استمرت أعشاراً من الثانية: أن يغرز أصابعه في العينين اللتين تتفحصانه، وأن يصرخ في «ريمون أبو فرخة» صرخة واحدة تضع حداً لكل هذه المهازل، فيسأله ماذا يريد منه؟ نعم سيسأله. لماذا لا؟

لكن الحلّ الآخر بدا أفضل له، وأكثر طمأنينة، وهو أن يحتمل هذا الوضع حتى طلوع النهار، ويختفي «ريمون أبو فرخة» من تلقاء نفسه، ويهرع هو إلى حضن أمه يحدثها عن أهوال الليلة الفائتة.

وماذا لو لم يختف، ماذا لو بقي مقرفصاً أسفل الشباك؟ أي رعب ينتظره؟! لو يلتقيان عند بوادر الفجر الأولى وجهاً لوجه! ليت أمه تجيء الآن بغير قصد، كما تفعل أغلب الليالي لتوقظه، كي يذهب إلى المرحاض. كيف تتركه كل هذا الوقت، ولم تشق عليه الباب لأي سبب كان، فهذا أدهمها الصغير. ليتها تجيء ولا تفعل شيئاً، إلا إضاءة النور.

لو أنه يسمع طرطقة أواني المطبخ، كما في الصباحات الآمنة التي مرّت، أو صياح ديك في حارة بعيدة، لهان عليه كل شيء. شخير والده يزيد من خوفه أكثر مما يطمئنه، يتصاعد ويزداد حشرجة إذا تلاطمت الأشباح وراء النافذة، وكسرت أعناقها.

إذا بقي على قيد الحياة بعد هذه الليلة فلن ينام وحيداً. سينقل كتبه ودفاتره وسريره وأشياءه الأخرى إلى الغرفة التي ينام فيها والداه، ولن يدخل هذه الغرفة مرة أخرى. على الجدار المقابل له، رأى رجلاً معلّقاً دون رأس أو عنق. بلع ريقه، تذكر حاجته الماسة لجردل ماء يغطّ فيه رأسه وجسمه ويشرب ساعات حتى يطفئ ظمأه ويرتوي.

مع بوادر الفجر الأولى، وبعد أن غلبه النوم لحظات، قام الأدهم بعمل جنوني، مثيراً الرعب في قلبي والديه إلى حدّ أن والده هرع إلى الخارج ظاناً أن صاعقة ضربت الدار. وعندما ظهر له الأدهم في حالته الهستيرية، طفحت نار في صدره، جاء شاداً على أسنانه ونزع الأدهم من حضن أمّه بقوة تشبه قوة «ريمون أبو فرخة». نفخ في وجهه بالشكل الذي يكرهه الأدهم، وجرّه إلى بيت الدرج وأوسعه فيه ضرباً. وقفت هيفاء السعدي بين زوجها وابنها تتلقى ضربات السير بدلاً منه، وتقول: الولد صار يخاف من يوم...

ويرد عليها زوجها صارخاً: ابنك من يوم ما ولد مهبول. وبعد أن توقّف إبراهيم الدلاّل عن ضرب زوجته وابنه، جلجل صوته في أرجاء الدار وهو يلهث وراء الأدهم: ماذا جاء بك إلى الدنيا يا «مسخوط»؟

شعر الأدهم بأنه فقد القدرة على النطق، وتحديداً على شرح مخاوفه. استلقى إلى جانب أمه على المصطبة، تلك البقعة الأكثر أماناً في العالم. غفا على ذراعها دون أن ينتبه إلى الدم الذي يسيل من كفتيها ويديها، ولم يعرف أن الألم في ذراعها تلك كان الأشد والأفدح.

كماغيّر خطته، فبدلاً من قراره أن يرحل إلى الغرفة التي ينام فيها والداه، رأى أنه من الأفضل أن ترحل أمه إلى غرفته. ذلك أنسب له. لا يريد أن ينام في الغرفة التي ينام فيها والده، ثم إنه يخاف من شخيره. وقبل أن

يعرض الخطّة على أمه، فوجئ بها في صباح اليوم التالي تقول له : هل تقبل بأمك ضيفة في غرفتك؟
ابتهج مثل عصفور في صباح ربيعي، وأقسم لها أنه كان سيعرض عليها الفكرة نفسها، وبعد أن غادر إلى المدرسة جاءت بفرشة ولحاف مليء ببقع تشبه بقع الزيت وببعض الأغراض إلى غرفة الأدهم. من أهم تلك الأغراض قطعة قماش برتقالية اللون تتداخل فيها خطوط ونقوش صفراء وخضراء، وتبرق عند عرضها أنجم زرقاء وبنفسجية. كانت قد اشترت هذه القطعة من بائعة الأقمشة، عندما كان الأدهم رضيعاً. ونذرت منذ ذلك الوقت أن تحافظ عليها، كما تحافظ على عينيها، إلى أن يكبر الأدهم ويتزوج وتفصّلها يوم عرسه. نذرت، أيضاً، أن تلقي بالمنديل الذي تلف به رأسها، وأن ترقص أمام كلّ أهالي القرية.
ومن الأغراض الأخرى التي أحضرتها معها، أيضاً: جوارب صوفية طويلة، سراويل وقمصان فضفاضة فاقعة الألوان خشنة الملمس، «بشكير عتيق»، «حرام صغير» كان للأدهم، تستخدمه الآن وسادة، ومنديل مهترئ.
علقت «البشكير» على مسمار صدئ دقته في الجدار، ووضعت كومة الأغراض في صندوق خشبي خبأته تحت سرير الأدهم، باستثناء قطعة القماش التي احتفظت بها تحت الوسادة.
كان أحبّ الألعاب إلى قلب الأدهم هذا الصندوق. ثبت له في إحدى المرات، وبمساعدة طاقم من أصدقائه، ثلاث عجلات بيليا، واحدة من الأمام يتحكم من خلالها بالاتجاه، واثنتين من الخلف، فأصبح الصندوق دراجة يلهو بها في الحارة، وكان يخرج بها أحياناً إلى الشارع العام، ويطيح بها نزلة المعصرة، فيفاجأ في ذروة نشوته بسيارة صاعدة تكاد تهاجمه وتفترسه مثل تنين.
حين هاجمته سيارة في المرة الأخيرة، ونغّصت عليه بهجته، نجح بإلهام رباني في إزاحة المقود إلى أحد الجانبين في آخر لحظة، وكان فارس يركب خلفه آنذاك، فانقلبت بهما الدراجة إلى جانب الطريق، ونجيا بأعجوبة، فما كان من أمّه إلاّ أن ضربت الدراجة بالأرض، فتناثرت العجلات. وأحاطته علماً أنها تحتاج الصندوق الذي تشرذم خشبه، كي تضع فيه بعض الأغراض، وأن عهد الدراجات ولىّ إلى غير عودة.
وعلى الرغم من أن فارس كان الصديق الأقرب إلى الأدهم، فإنّ صداقته كانت قد تعمّقت مؤخّراً بالأولاد الآخرين، خاصة بسائد، الذي يساويه عمراً لكنه يفوقه طولاً ومهارة في لعب الكرة. كان كابتن الفريق سائد قد تغلب على كابتن الفريق مراد في المباراة النهائية للأشبال التي جرت قبل فترة، وكان مراد وثلاثة من اللاعبين قد عادوا بعد أن هدأت الاحتفالات وتفرّق الأولاد، وغدروا بسائد بضربة قضيب، الأمر الذي تسبسب في كسر إحدى ساقيه.
في الطريق إلى بيت سائد، كان مراد وصديق له يحدّقان في فارس والأدهم ولم يتحرشا بهما. كانا منشغلين بتدريب الفريق الذي سينتزع كأس الدوري للأشبال، بعد الإصابة الماحقة التي دبّرت للكابتن سائد ولفريقه. غير أنّ بعض الأولاد تبعوهما، وصاروا يدوسون على ظلالهما التي تشكّلا على أرض الشارع، وكان على الأدهم، مثلما فعل صديقه، أن يحمي ظلّه من دعساتهم. وكانت تلك المرة الأولى التي شعر فيها بأنه مهدد.
ذهل الأدهم عندما رأى سائد ممدداً كئيباً على السرير مثل رجل عجوز. للوهلة الأولى ظنّ أنّه غير مرغوب فيه،

ثم تلاشى ذلك الاعتقاد تدريجياً عندما أخذ فارس على عاتقه ترطيب الأجواء بين صديقيه. وأصبح سائد يبادر إلى الكلام مع الأدهم. وفيما بعد انطلق لسان الأدهم، ولم توقفه أية قوة. بداية حدثهم أنّه وجد سلحفاة في محيط دارهم، وأنه صار يطعمها أوراق الخسّ ويتتبّع خطواتها. كما وشوش صديقيه أن أشباحاً كانت تتصارع وراء شباك غرفته في ليلة البرد القارسة، وأنها كانت تريد الدخول إلى الدار، لأنّها لم تحتمل البرد. أخبرهم، أيضاً، أن الأشباح لا تعيش مع بعضها، بل تتناحر إذا التقت. لهذا السبب فإنّه إذا سكن شبح داراً، لا يدخلها شبح آخر.

وما لم يصدّقوه بسهولة، أنّه أقسم لهم أنّه رأى شبحاً ينزف من عنقه، وأن دمه ملأ قعير دارهم، ولولا أنّها أمطرت بغزارة تلك الليلة وتلاشى كل الأثر، لجاء بأهالي القرية جميعهم، وجعلهم يرون ذلك بأنفسهم.

نسي سائد ضربة الغدر التي تعرّض لها، ومقدار الحقد الذي يكنّه لمراد، واختفت منه الأوجاع التي تضاعفت بعد العملية الجراحية، كما تبخّر قلقه ووساوسه من ألا يعود إلى الكرة مرة أخرى. نسي كل ذلك وهو مشدود إلى أحاديث صديقيه وحكاياتهما الغريبة المسلية. أثار اهتمامه المقلب الذي رواه فارس، عن تحريض طلاب الصف على تطفيش أستاذ اللغة العربية. قال وهو لا يكفّ عن الضحك: أعطينا الأستاذ درساً في الفاعل والمفعول به.

كان الأدهم آنذاك يراقب أم سائد وهي تضع طبق الشوكولاته على الطاولة في غرفة الضيوف. منذ قليل، مدّت عليهم ذاك الطبق، فأخذ كل من فارس وسائد قطعتين، أما هو فلم يأخذ إلا قطعة واحدة، وباستحياء شديد، فهكذا يكون الأدهم مؤدباً في نظر أمه. كلماتها ترنّ في رأسه: «الولد المؤدب يرفع رأس أمه». لكن عندما أخذ صديقاه قطعتين بدل واحدة، شعر بأنه خُدِع، وكاد يبكي، خاصة أن الشوكولاته كانت لذيذة جداً. وأخذ يحدّث نفسه، أنه لو كان دوره هو الأخير، لتجرأ وفعل ما فعله فارس وسائد. لكنه ليس من اللائق أن يفعل ذلك عندما يكون دوره الأول. فربما قالوا: إنه «شره».

عاد إلى متابعة مقلب فارس، متوقعاً أن تكون أم سائد لاحظت أنه لم يأخذ إلا قطعة واحدة، لتدسّ له قطعة أخرى في جيبه قبل أن يذهب.

لم يسبق أن لاحظ الأدهم بروز الأسنان الأمامية لفارس بهذا الشكل الذي يراه الآن. وذلك بسبب طريقته في الكلام، وضحكه المتواصل. في لحظة من اللحظات، استطاع أن يشخص تسوساً في الضرسين الخلفيين، وأن يرى قطعة الشوكولاته الأخيرة تذوب على لسانه.

ضرب فارس وسائد كفاً بكفّ، وضحكا بصوت عال.

جفل الأدهم بعد أن سها عند باب غرفة الضيوف، فجاءت أم سائد وهي تجرّه من يده وقالت:

– خذوا هذا الولد. وجدته نائماً وراء الباب وريالته متر أمامه.

أمسك فارس بيد الأدهم، ولاحظ حالة النعاس المفاجئة التي هبطت عليه.

لم يقو الأدهم على الوقوف. أطبق جفنيه وكاد يسقط أرضاً، لولا أنّ فارس أخذ ينفض جسمه كل حين صارخاً: أنا لست أمك، من شان الله تصحا.

أفاق الأدهم ثانيتين، ودّع خلالهما سائد، ورمق أمه بنظرة حقد، ومضى يجره فارس من يده.

الليلة التي سبقت رحيل أمه إلى غرفته، نام الأدهم نوماً هادئاً عميقاً بعد حالة النعاس التي فاجأته في بيت

سائد. لم ير شبحاً واحداً وراء الشباك، ولم يزره ريمون أبو فرخة. كان صباحاً مشمساً بعد أيام عاصفة، قصفت أعناق الأشجار، وأحالت بعض الدور العتيقة إلى ركام.

داعبت الشمس بأشعتها الدافئة التي تسللت بين قطعتي القماش اللتين وضعتا كستارة جفنيه الناعسين، ثم سمع طرطقة أواني المطبخ، وشمّ رائحة البطاطا المقلية، فاطمأن إلى أن أمّه هناك، وأن العالم بأكمله بسلام.

في اللحظة التي قلب فيها على الجانب الآخر، رأى أنف أم سائد يتمطى ويكبر، وسمعها تقول: «خذوه لأمه، لا أريد رؤيته، هذا الولد مسعور».

كاد يتعثر بحذائه الملقى وسط الغرفة وهو يركض إلى المطبخ، وقد سبقه صوته إليها: يمّا أريد شوكولاته.

وتابع كلامه وهو في حالة انفعال: شوكولاته في صحن كبير، لها أشكال حيوانات وطيور.

وعندما التفتت الأمّ نحو الأدهم، كانت تريد أن تقول له إنها ستجعل والده يشتري له الشوكولاته التي يحب، لكن ما أن وقع نظرها عليه، حتى رأت ما لم تصدقه. وبحركة لا إرادية، أفلتت أصابعها ما كانت تمسك به، وبحلقت جيداً. اقتربت منه وبحلقت مرات أخرى، وتأكدت أنها رأت خصلة من شعره قد تحوّلت إلى اللون الرمادي. وعندما سألها عن معنى كلمة «مسعور»، لم تعره أي اهتمام، لأنّها لم تسمعه.

في يوم الإجازة الأسبوعية، سحبته من غفوته، وجعلت بائعة الأقمشة تلقي عليه نظرتها الفاحصة. قالت بلهجتها البدوية: ابنك خايف له خوفة كبيرة، ما يرد له شعره غير خوفة مثلها.

ثم ناولتها تعويذة، لفتها بخرقة كانت تحتفظ بها في جعبتها، وهمست لها: اغرزي له هذا الحجاب في جيبته من جوّا.

أخذت منها التعويذة، وناولتها بالبدل رطلاً من السكر، ومضت.

عند عصر أحد الأيام، عاد الأدهم معفّراً من رأسه إلى أخمص قدميه، إذ أصبح يجاري الأولاد الآخرين في لعب الكرة. وتعلم كيف يدافع عن ظلّه، لكنه مع ذلك يظلّ خائفاً وقلقاً من الأولاد الذين يتربّصون له في الأزقة، والحارات. خلعت الأم عنه ملابسه. وصبت فوقه الماء الساخن، وصنعت رغوة الصابون التي يحبها وفركته بها. كادت فروة رأسه تطلع بيدها لكثرة ما فركت، دون أن يحلّ اللون الرمادي عن شعره.

كان يلهو برغوة الصابون، التي صنع منها فقاعات، وجعلها تتطاير حوله مثل فراشات. حرقه الصابون في عينيه عندما أخذ يراقبها وهي تعلو وتلمع مثل كرات من بلور. رفس بقدميه جردل الماء، فاندلق بعض منه، وطرطش المصطبة، فتح عينية وفركهما، وصاح باكياً كمن لسعته عقرب.

صبّت جردل الماء فوق وجهه وشطفت عينيه من أثر الصابون وظلت تقول له: «ما تفتح عينيك إلا لما أقول لك». ولما فتح عينيه، كانت أمه بلباسها البيتي الفضفاض الذي اعتاد أن يراها فيه، ومنديلها الأسود، مبللّة تماماً. وكان هو نظيفاً شهياً، لدرجة أن نقاط الماء لم تصمد على كتفه وأسفل عنقه. لفته بالمنشفة، وحملته كما كانت تفعل عندما كان في عامه الأول.

قالت وهي تلهث وحبات العرق تلمع فوق جبينها: من الآن ستستحم وحدك، لقد كبرت.

وعندما وضعته على السرير، قبّلته من بطنه ودغدغته بشفتيها حتى ملأ الدنيا ضحكاً وألقاً، وغرزت له التعويذة في جيب بنطاله دون أن ينتبه، وقدّمت له كيساً.

كانت الشوكولاته مثلما طلب تماماً، لها أشكال حيوانات وطيور. التهم فيلين وبقرة وثلاث زرافات وطيرين لم يعرف أسميهما. ناول أمه نمراً ودجاجة، وانتظر والده وراء باب المرحاض وناوله ثوراً وخروفاً.
أنكر النتيجة التي توصل إليها، من أنّ شوكولاتة أم سائد كان لها طعم ألذ. ألقم فمه بطير آخر، له منقار حادّ وطويل وجناحان واسعان مثل القطعة التي أخذها، عندما مدت أم سائد عليه الطبق.
بحث في المطبخ عن طبق مماثل لطبق أم سائد ليصفّ فيه قطع الشوكولاته ولم يجد. خطر في باله أن يذهب لزيارة سائد، وسرعان ما عدل عن الفكرة. خبّأ كيس الشوكولاته تحت الفرشة، متوقعاً أن يقوم فارس وسائد بزيارته عما قريب، وأن تقوم أمه بترتيب قطع الشوكولاته في طبق شهي، وتمدّه عليهم كما تفعل أمهات أصدقائه.
في صباح اليوم التالي، تظاهر بأنه لم يسمع صوت أمه عندما نادته. جعلها تجيء إلى سريره وتداعب شعره. امتعضت للخصلة الرمادية في الجانب الأمامي من شعره، وقال لها: لن اذهب إلى المدرسة اليوم.
شهقت. وضعت ظاهر يدها على جبينه، وقالت: خير إن شاء الله يمّا.
قال بصوت حزين يدعو إلى الشفقة: أنا مريض يمّا.
أدركت الحيلة التي يدبرها. رفعت اللحاف عنه، فأعاد وضعه فوقه مخفيا وجهه، ثم جلس بشكل مفاجئ وقال: أصحابي سوف يزورونني اليوم. فكّرت أنهم يمكن أن يزوروني إذا مرضت، لا أعرف لماذا لا يأتون عندي.
ثم وشوشها بحذر بالغ وهو يتلصص نحو الباب: يمّا . . . الأولاد يقولون عندما تزوجك أبي أنه جرّك من شعرك على طول الكروم.
أغلقت الباب. شدّت المنديل على رأسها ووشوشته كما فعل: ماذا قالوا، أيضاً، هل قالوا شيئاً آخر؟
نفى بحركة من رأسه. سحب كيس الشوكولاته من تحت الفرشة، وبحث عن أضخم طائر والتهمة، والتهم وراءه طيوراً وحيوانات أخرى.
ولمّا فتح عينيه وأفاق، لم يدر كم من الوقت قد نام. لم يسمع صوتاً في الدار. لعب لسانه بقطعة الشوكولاته التي غفت مثله في فمه، وحركها حتى بدأت تذوب وتقطر في حلقه تلك الحلاوة المحببة.
عثر على أمه في فناء الدار ترفو بعض الجوارب. هناك طارد جندباً أكثر من ساعة. تسلّل وراءه سياج الجيران، حتى أمسك به وحبسه في قنينة زجاجية، وعاد فرحاً، لكن جارهم نغص عليه فرحته ولحق به متهماً إياه بسرقة دجاجة من دجاجاته.
دخل الأدهم الدار لاهثاً وأقفل الباب. تذكّر أنه نسي أمه في الخارج. تلصص من ثقب صغير في الباب، فرأى جارهم مستشيطاً غضباً وفي يده عصا. لن يجرؤ بأية حال أن يفتح الباب ويسحب أمه إلى الداخل. سمعها ترد عليه بوتيرة الصوت نفسها: الولد لم يتعلم أن يسرق.
قال الرجل ووجهه يتدفق احمراراً: لماذا فتح خم الدجاج إذاً؟
– كان يلاحق فراشة.
وعلا صوت الأدهم من وراء الباب: جندب يمّا . . . . جندب.
وتابع كلامه، وقد خفتت الضربات الإيقاعية في صدره: الدجاجات شردوا لجهة المزبلة.
وأكملت الأم ما بدأه ابنها، مضيفة من عندها:

دجاجاتك شرّدوا على المزبلة من الجوع، أي نعمة إنّه الولد أفرج عنهم، وإلا كان ماتوا من الجوع.
توقّع الأدهم أن يحاول جارهم التهجم على أمه، بسبب حدة الشجار الذي تصاعد بينهما، واتخذ قراراً حاسماً، أنه إذا اقترب الرجل من أمه خطوة واحدة أخرى فسوف يخرج ويفسخ رأسه إلى نصفين. من حسن حظه أنّه نجا بنفسه، وغادر الحوش باحثاً عن الدجاجة التي اختفت. أسرع وفتح الباب لها. وقبل أن يخرج الدجاجة من تحت بلوزته، لاحظت انتفاخ بطنه. لحقت به مهدّدة، فغامر بدخول حاكورة جارهم مرّة أخرى، وأفلت فيها الدجاجة، وحلّ زرد الكلب وأفلته وراءها، وراح يراقب الحدث الساخن من وراء السياج، وصوته يملأ الدنيا صخباً ومرحاً، ثمّ أخذ يلهو بالجندب الذي وجده يصارع الموت داخل القنينة، فأزال السدادة عن الفوهة، وأخرجه منها. للوهلة الأولى لم يستطع القفز، كأنه يحتاج لمن يعلّمه، ثم سرعان ما قفز قفزة واحدة غير متوازنة، وانطلق بعدها قوياً متماسكاً كما كان. عاد ودخل الحاكورة وركب الجحش وهرب به، دون أن يكترث لنداءات أمّه وصراخها الذي ملأ الحارة.
عند العصر، كانت أمّه قد أعدّت طبقاً للشوكولاته وطبقاً آخر للبسكويت، كما رأى في بيت سائد. وتمارض في سريره دون أن يجيء أيٌّ من أصدقائه لزيارته كي يلتهموا الشوكولاته معاً كما خطط. لم يراوده الحزن إلا دقائق قليلة، لأنه انشغل بتذوق أصناف البسكويت ذات الأشكال المتعددة والشهيّة والمذاقات اللذيذة.
ذات ليلة، وبينما كانت الأم تمد فراشها على المصطبة قرب سريره، أخذ يرجوها أن تنام إلى جانبه. فجاءت ودسّت نفسها إلى جانبه متخذة طرف السرير مطرحاً لها، لكنه التصق بها، طالباً منها أن تحكي له حكاية الغولة التي هاجمت القرية في قديم الزمان، كما كانت جدته تفعل. قالت له إنّها لا تحفظ حكايا مثل جدته، وأنها لا تعرف في حياتها غير قصة واحدة، وهي القصّة التي لا تُحكى.
ظنّ أنّ أمّه قالت لغزاً. فكّر جيدا ولم يفهم ما رمت إليه. وعندما نظر إليها، لم ير إلا المنديل الذي يلف رأسها، وخطر له سؤال: لماذا تبقي ذلك المنديل على رأسها طوال الوقت، حتى أثناء النوم؟ إنّه لا يذكر أنه رأى شعرها مرّة.
وما حدث بعد ذلك كان فظيعاً، ولم يجد له تفسيراً، وهو أنه سمع والده يهمس في أذن أمه كي تتبعه. لم يره. أحسّ برجّات صوته. شعر بها حين التصقت به وقد أصابتها رجفة مفاجئة، اصطكت على إثرها أسنانها، وبردت أطرافها. تسلّل والده إلى الغرفة مرة أخرى. قبض على ساعدها وجرّها وراءه مثل طفلة تأبى الذهاب إلى المدرسة. تبعهما الأدهم، وتلصص من شق في الباب دون أن يرى شيئاً. على أية حال، اطمأن أن والده لم يطح بها ضرباً مثل المرة الفائتة. إذا فعل فلن يتهاون معه هذه المرة، وسيمنعه بأي شكل.
عاد إلى غرفته، واثقاً من أن أمّه ستتبعه بعد قليل، بعد أن تناول والده كأس الماء وحبوب الدواء كما وشوشته، لكنه سمع أنفاس والده تتسارع وتعلو في وتيرة تصاعدية، حتى وصلت عند نقطة معينة وتوقفت. ظنّه مات. أنصت إلى جانب الباب. منعته من الدخول حشرجات شخيره وصوت بكاء نسائي بعيد صار يطارده في أرجاء الدار.

---

* روائية فلسطينية تقيم في الولايات المتحدة.

(1) الجزء الأول من رواية تحمل العنوان نفسه.